بالقضاء في دمشق وما معها من البلاد الشَّامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدَّم ذكره في سنة ست عشرة وست مئة[١].

وفيها توفي المحدِّث أبو طاهر إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأنْماطي[٢] ليلةَ الاثنين ثالث عشر رجب بدمشق، ودُفِنَ من الغد بمقابر الصُّوفية خارج باب النَّصْر، رحمه الله.

ثم دخلت سنة عشرين وست مئة

ففيها عاد الأشرف بن العادل من مِصْر إلى الشَّام قاصداً بلاده بالشرق، والتقاه أخوه المُعَظَّم ملك الشام، وعَرَضَ عليه النزول بالقلعة، فامتنع، ونزل بجوسق أبيه، وبدتِ الوَحْشة بين الإخوة الثلاثة: الكامل والأشرف والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السَّحَر، فساق، ونَزَلَ ضمير، ولم يعلم المُعَظَّم برحيله، وسار يطوي البلاد إلى حَرَّان.

وكان الأشرف قد استناب أخاه شهابَ الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين على خِلاط لما سافر إلى مِصْر، وجَعَلَه وليَّ عهده بعد عينه، ومكَّنه في جميع بلاده، فسوَّلَتْ له نَفْسُه العِصْيان، وأعانه عليه قومٌ آخرون؛ أخوه المُعَظَّم، وابن ١٣٤
زين الدِّين صاحب إربل، والمشارقة، وقالوا: نحن من ورائك.

ولـمَّا وصل الأشرف إلى حَرَّان سار إلى سِنْجار، وكَتَب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتَبَ إليه: يا أخي، لا تفعل، أنتَ وليُّ عهدي، والبلاد والخزائن بحكمك، فلا تخرب بيتك بيدك، وتسمع كلام الأعداء، فوالله ما ينفعونك. فأظهر العِصْيان، فجمع الأشرفُ عساكر الشَّرْقِ وحلب، وتجهَّز للمسير إلى خِلاط، وكان صاحب حمص قد مال

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤٨ من هذا الجزء.

إلى الأشرف، فسار المُعَظَّم إلى حِمْص، ووصل إلى حماة، ونزل على نقيرين ـ قرية على بابها ـ باتفاقٍ كان بينه وبين صاحبها، فلم ينزل إليه، ولا فَتَحَ له البابَ، فأقطع بلاد حماة، وعاد إلى حمص، وخرج إليه العسكر، فظهروا عليه، ونهبوا أصحابه، فعاد إلى دمشق، ولم يظفر بطائل.

وفيها حَجَّ بالنَّاس من العراق ابنُ أبي فراس، ومن الشَّام شرف الدين يعقوب صاحب شركس.

وفيها توفيت والدتي رحمها الله، ودَفَنْتُها بالجبل في طريق الكهف، قريب الأماج والمُغُر إلى جانب الوادي، وأرجو أن أدفن عندها، وكانت وفاتُها يوم السبت سادس رجب، وكانت دَيِّنَةً صالحةً، رضي الله عنها.

وفيها توفي الأمير مبارز الدين سُنْقُر الحلبي الصَّلاحي[1]؛ والد الظهير بن سُنْقُر.

قال أبو المظفر: كان مقيماً بحلب، ثم انتقل إلى مارِدِين، فخاف الأشرف منه، فبعث إلى أخيه المُعَظَّم، وقال: ما دام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي. فأرسل المعظم ابنه الظَّهيرِ غازي بن سُنْقُر إلى أبيه، وقال: أنا أعطيه نابُلُس وأي شيء أراد. فجاء الظَّهير إلى ماردين، وعَرَّفَ المبارز رغبةَ المعظم فيه، وأنه يقطعه من الشَّام أي شيء أراد. فقال له صاحِبُ مارِدِين: لا تفعل، فهذه خديعة. فأبى، وسار إلى الشَّام في سنة ثماني عشرة، ووصل إلى دمشق، وخرج المعظَّم للقائه ولم يُنْصِفه، وجاء، فنزل في دار شِبْل الدولة الحُسامي التي انتقلت إلى الصُّوفية عند مدرسته بجسركحيل، فأقام بها والمُعَظَّم مُعْرِضٌ عنه، ويُماطله باليوم وغد حتى تفرق عنه أصحابه، وكان معه جُمْلة من المال، والخيل العربية المنسوبة، والجمال، والبغال، والسِّلاح والمماليك شيء كثير، ففرَّق الجميع في الأمراء والأكابر[2].

---

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ٦٦٥، وفيات سنة ٦٢٠هـ)، الوافي بالوفيات: ١٥/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

قال: وكان جاري؛ لأني كنتُ مقيماً بتربة بدر الدين حسن على ثورا[١]، وكان يزورني وأزوره، ويشكو إليَّ إعراضَ المُعَظَّم عنه، وما فَعَلَ به ولده الظهير، وكيف خدعه، وأنا أسليه، وأهوِّن عليه، ووَقَعَ لي كتابٌ فيه حديثُ ملوك اليمن، فبينا أنا قاعد أقرؤه، دخل فقال: أيش تقرأ؟ قلتُ: أخبارَ ملوك اليمن. فقال: اقرأ عليَّ. فقرأت فلان الملك عاش ألف سنة ومات بالغَمِّ، وفلان عاش سبع مئة سنة وماتَ بالغَمِّ. وذكرتُ من هذا الجِنْس، فقال: وأنا أموت بالغم. وكان طول النهار يجلس مغموماً مهموماً، وما يفيد فيه العَذْل حتى انقطع أكله، فأقام عشرين يوماً لا يدخل في فِيْه إلا الماء، وماتَ كمداً في شعبان في دار شِبْل الدولة كافور، فقام كافور بأمره أحسنَ قيامٍ، وجهَّزه أجمل جهاز ـ وكان صديقَه من أيام شمس الدَّوْلة أخي ستِّ الشَّام لأبويها، ويقال: إنَّ المبارز كان مملوك شمس الدَّولة ـ اشترى له كافور تُرْبةً على رأس زقاق شبل الدولة عند المصنع بألف دِرْهم، وحَضَرَ جِنازته خَلْقٌ عظيم لأنه كان مُحْسناً إلى النَّاس، ولم يكن في زمانه من الصَّلاحية وغيرهم أكرم منه ولا أشجع، وكانت له مواقف مشهورة مع صلاح الدين وغيره، ولما مات وجدوا في صندوقه دستوراً فيه جملة ما أنفق في نِعال الخيل؛ وذلك ثمانية عشر ألف دِرْهم، فسألتُ كاتِبَهُ عن ذلك، فقال: ما يتعلَّق هذا بنعال دوابِّه، وإنما كان يستعرض الفرس الثمين بخمس مئة دينار وأكثر، فَيُنْعِلُه أولاً قبل أن يركبه، ثم يركبه، فإن
١٣٥ صَلُحَ أعطى صاحبه ثمنه، وخَلَعَ عليه، وإنْ لم يَصْلُحْ أعطى صاحبه مئتي دِرْهم، واعتذر إليه.

قال أبو المظفر: وجَرَتْ عقيبَ ذلك واقعةٌ؛ اعترض بعض الأمراء فرساً وأنعله، ثم ركبه، فلم يصلح، وجاء صاحِبُهُ يطلبه، فقال الأمير لغلامه: اقلع نعاله، وأعطه صاحبه[٢].

---

(١) انظر ص ٣٠٧ من هذا الجزء.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

قال: وما كانت الدُّنيا تساوي عند المبارز قليلاً ولا كثيراً. ولقد حكى لي ابنهُ الظَّهير، قال: وَصَلَ مع أبي إلى الشَّام ذَهَبٌ وجمال وخيل وغيرها ما قيمته مئة ألف دينار، ومات وليس له كَفَنٌ، ما كفَّنه إلا شِبْلُ الدَّولة[١].

وفيها توفي عِزُّ الدِّين المُظَفَّر بنُ أسعد بن حمزة التميمي، المعروف بابن القلانسي[٢].

من رؤساء دمشق، وجَدُّه أبو يعلى حمزة هو صاحب ذيل التَّاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه[٣].

سَمِعَ عِزُّ الدين المذكور الحافظَ أبا القاسم ابنَ عساكر وغيره، وكان يصحب الشيخ تاجَ الدِّين الكِنْدِي ملازماً له، وانتفع به، وكان كَيِّساً متواضعاً، وتوفي في شهر رمضان، ودفن بجبل قاسيون.

وفيها توفي محمد بن سَلْمان بن قُتُلْمِش بن تركانشاه، أبو منصور السَّمَرْقَنْدِي[٤].

ولد سنة ثلاثٍ وأربعين وخمس مئة، وبَرَعَ في عِلْم الأدب، وولي حِجْبة الباب للخليفة، ومن شِعْره:

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠هـ).

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ٧٠٧، وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٣) هو «مذيل التاريخ الدمشقي» كما سماه أبو شامة في «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٨، وقف فيه مؤلفه عند حوادث سنة (٥٥٥ هـ)، وهي سنة وفاته، وقد نشره المستشرق الإيطالي أمدروز، وطبع في بيروت سنة ١٩٠٨ م، ثم أعاد نشره د. سهيل زكار، وطبع في دمشق ١٩٨٣م.

(٤) له ترجمة في معجم الأدباء: ١٨/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، معجم البلدان: ٤/ ١٨٨، المحمدون من الشعراء للقفطي: ٤٨٧ ـ ٤٨٩، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٩٨، تلخيص مجمع الآداب: ج٤/ت ٢٣٥٨، تاريخ الإسلام (ت ٦٩٤، وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، فوات الوفيات: ٣/ ٣٦٩ ـ ٣٧١، الوافي بالوفيات: ٣/ ١٢٥ ـ ١٢٧، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، بغية الوعاة: ١/ ١١٥ ـ ١١٦، شذرات الذهب: ٥/ ٩٣.

سَئِمْتُ تكاليفَ هذي الحياةِ وكَرَّ الصَّباحِ بها والمساءِ
وقد صِرْتُ كالطِّفْلِ في عَقْلِهِ قليلَ الصَّوابِ كثيرَ الهُرَاءِ
أنامُ إذا كنتُ في مجلسٍ وأَسْهَرُ عندَ دخولِ الفِنَاءِ
وقَصَّرَ خَطْويَ قَيْدُ المشيبِ وطال على ما عَنَاني عَنَائي
وغُودِرْتُ كالفَرْخِ في عُشِّهِ وخَلَّفْتُ حِلْمي ورائي ورائي
وما جَرَّ ذلك غيرُ البقاءِ فكيفَ ترى سوءَ فِعْلِ البقاءِ

وكانت وفاته في ربيع الآخر، ودفن بالشُّونيزية.

وفيها توفي الضِّياء بنُ الزَّرَّاد الدِّمشقي[1].

وكان قارئاً طَيِّبَ النَّغْمة، صَيِّتاً، عالماً بالقراءات، وكان فقيراً؛ سافر من دمشق إلى مَيَّافارقين، واتَّصل بصاحبها شهاب الدِّين بن العادل، وأقام عنده، ثُمَّ اتَّصل بالأشرف بن العادل.

قال أبو المُظَفَّر: واجتمعنا بخِلاط في سنة ثلاث عشرة وست مئة، وكان يتردَّد إلينا، ويقرأ طَيباً صحيحاً، ثم خَلَّط، ودخل معهم فيما هم فيه؛ جاءني يوماً وهو نادِمٌ حزين يبكي، فسألته عن حاله، فقال: البارحة حَضَرْتُ عند الأشرف، وناولني قَدَحاً من الخمر، فامتنعت من شُرْبه والأشرف ساكتٌ ينظر إليَّ، ومازالوا بي حتى شَرِبْتُه، فلمَّا حَصَلَ في جوفي عَضَّ الأشرف على يده بحيث كاد يقطعُ أصابعه، وقال لي: والك[2] فَعَلْتَها! حطَّيت الخمر على مئة وأربع عشرة سورة! والله لو خُيِّرْتُ بين أن أحفظ القرآن كما تحفظه وأدع مُلْكي لاخترتُ حِفْظَ القرآن.

ثم نزلتْ حُرْمَتُهُ بعد ذلك، فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع لرسومٍ

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ٦٦٨، وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٤٠ من هذا الجزء.

كانت له عليهم، فخرج من حَرَّان في هذه السنة قاصداً السويداء، ومعه غِلْمانٌ مُرْدان ثلاثة، فنام في وادٍ وقتَ الظَّهيرة، فقتلوه، وأخذوا خيله وقُمَاشه وماله، وبلغ الحاجب علياً، فأرسل خلفهم، فجيء بهم، فقتلهم[١].

وفيها توفي الشَّرف محمد[٢] بن عُرْوة المَوْصِلي[٣]. ١٣٦

المنسوب إليه المشهد بغربي الجامع بدمشق، وإنما نُسِبَ إليه لأنه كان مخزناً فيه آلاتٌ تتعلَّق بالجامع، فعزَّله وبيَّضه، وجَدَّد في قِبْلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله، ووقف فيها كُتُباً، وجعله دارَ حديثٍ، ووقف على الشيخ المسمع به وعلى السَّامعين وقفاً، وذلك قبل سنة عشرين وست مئة، ثم بعد ذلك أُمر[٤] بجمع الخزائن المفرَّقة في الجامع، فَنُقِلَ ما فيها من الكتب الموقوفة إلى المشهد المذكور، وبُني لها خزائن في شَرْقه وغربه، وجدَّد ابنُ عروة في المشهد المذكور بِركةً على يمين الدَّاخل إليه.

قال أبو المظفر: كان ابنُ عروة مقيماً في القُدْس، ويُدَاخل المعظم وأصحابه ويعاملهم، ويؤذي الفقراء والمشايخ، وخصوصاً الشيخ عبد الله الأرمني، فإنه انتقل عن القدس بسببه، ولما خُرِّب القُدْس نَزَلَ ابنُ عروة إلى دمشق، فأقام بها يسيراً، ومات، فدفن عند قِباب أتابك طُغْتِكِين[٥].

وفيها توفي في المُحَرَّم الشيخ عبد الرحمن اليمني[٦] الذي كان مقيماً في

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٢) في (ب) و(ك) و(ع) بياض، ولعل عروة هو جده لا أبوه.

(٣) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ٦٩٧، وفيات ٦٢٠ هـ)، الوافي بالوفيات: ٤/ ٩٤، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، الدارس: ١/ ٨٢.

(٤) كان ذلك سنة (٦١٧ هـ) أو نحوها، انظر ص ٢٩٠ من هذا الجزء.

(٥) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٦) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ٦٨١، وفيات سنة ٦٢٠هـ)، والصحيح في وفاته سنة (٦٢١ هـ) كما ذكر أبو شامة ص ٣٧٧ من هذا الجزء.

المنارة الشرقية بجامع دمشق، وكان أحد المشايخ القوَّالين للحق عند الملوك وغيرهم، على وجهه أنوارُ الخير، ولقد بلغني أنه سنة خرجتِ الفرنجُ على بلاد المسلمين[١] حَضَرَ عند السلطان العادل بن أيوب للإنكار عليه في عدم حِفْظِ ثغور المسلمين؛ هذا اليمني والشيخان فخر الدين ابن عساكر وجمال الدين الحصيري، فكان هذا اليمنيُّ أبلغَ الجماعة كلاماً في ذلك.

قال أبو المظفر: كان زاهداً ورعاً فاضلاً، منقطعاً عن الناس، وكان العادل يبعث إليه بالمال فلا يقبله، ودفن بمقابر الصُّوفية، رحمه الله تعالى[٢].

وفيها[٣] في ربيع الآخر توفي الشيخ أبو الحسن[٤] الرُّوزبهاري[٥] المدفون خارج باب الفراديس الأول في البُرْج المستجد، رحمه الله[٣].

وفيها فُجِعَ النَّاسُ بوفاة إمامين كبيرين، شيخي مذهبي الشَّافعية والحنابلة عِلْماً وعملاً.

أما شيخُ الشَّافعية فهو فخر الدِّين أبو منصور عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الدِّمشقي، المعروف بابنِ عساكر[٦]، وليس في أجداده من اسمه عساكر، وإنما هي تسمية اشتهرت في بيتهم، ولعله من قِبَلِ أُمّهات بعضهم.

---

(١) لعله يشير إلى سقوط بيروت سنة (٥٩٣ هـ)، انظر ص ٧٢ من هذا الجزء.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ب).

(٤) في الأصل و(ع) بيض المصنف لاسمه.

(٥) له ترجمة في تاريخ الإسلام (ت ٧١٣، وفيات سنة ٦٢٠ هـ) ـ وقال: المدفون بالبرج الذي عن يمين باب الفراديس بالخانكاة الروزبهارية ـ والبداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، الدارس: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١، منادمة الأطلال: ٢٧٦، وفيهما الروزنهارية ـ بالنون ـ وإخالها تصحيفاً.

(٦) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤١٨، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٠٢ ـ ١٠٣، وفيات الأعيان: ٣/ ١٣٥، تلخيص مجمع الآداب: ٤/ت ٢١٦٢، تاريخ =

وهذا البيت بيتٌ جليل كبير من الدِّمشقيين، كثير الفُضَلاء والحُفَّاظ والأُمناء، جَمَعَ هذا البيت رياسة الدِّين والدُّنيا، وأَجَلُّهم في زمانه ديناً وعِلْماً هذا الفخر ابن عساكر، وفي القرن الذي قبله عَمَّاه الصَّائن هبة الله، والحافظ أبو القاسم، ثم ابنُ عَمِّه الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم، وابنه العماد بن القاسم.

وأخو الفخر تاجُ الأمناء أحمد، وزين الأمناء حسن.

وأم الفخر وأخويه أسماء بنتُ محمد بن الحسن بن طاهر القُرَشية المعروف والدها بأبي البركات بن الرَّان؛ وهو الذي جَدَّد عمارة مسجد القَدَم في سنة سبع عشرة وخمس مئة، وبه قبره، وقبر الواعظ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الرَّان، وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيراً ما يكون زائراً بمسجد القَدَم؛ لأن به قبرَ جَدِّه لأُمه، وَمَنْ سَلَفَ من بيته، ودُفِنَ به أيضاً أخوه تاج الأُمناء.

وأسماء المذكورة هي أُخت آمنة أم القاضي محيي الدِّين محمد بن علي بن الزكي، فهو ابنُ خالتهم.

اهتمَّ الشيخ فخرُ الدِّين ـ رحمه الله ـ من صِغَره بالعِلْم، فاشتغل بالفِقْه على شيخه قطب الدين مسعود النَّيْسابوري حتى بَرَعَ في ذلك، وانفرد بعِلْم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار، وكان عند شيخه كالولد، وزوَّجه ابنته، فأولدها ابنا سماه باسم جَدِّه قُطْب الدين مسعود، ولو عاشَ خَلَفَ جَدَّه ١٣٧
ووالده؛ لأنه كان مهتماً بالعِلْم وتحصيله، وبَرَّزَ فيه، لكنَّه توفي قبل والده بزمان.

= الإسلام (ت ٦٧٩، وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٨٧ ـ ١٩٠، العبر للذهبي: ٥/ ٨٠ ـ ٨١، فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠، الوافي بالوفيات: ١٨/ ٢٣٥، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ١٧٧ ـ ١٨٧، طبقات الشافعية للإسنوي: ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٢/ ٦٧، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥٦، الدارس: ١/ ٨٢ ـ ٨٥، الأنس الجليل: ٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤، شذرات الذهب: ٥/ ٩٢ ـ ٩٣.

ودرَّس فخرُ الدِّين مكان قُطْب الدِّين بالمدرسة الجاروخية، وبنى لها قاعتين، إحداهما التي كان هو ساكناً بها، وبها توفي، وهي التي لها باب في الحائط الغربي من إيوان المدرسة. والأخرى لزيقها، بابُها من الزُّقاق لزيقُ باب المدرسة، كان يسكنها ولده المتوفَّى، ووقفهما بعد نَسْله على المدرسة.

ثم تولَّى التدريس بمدرسة القُدْس النَّاصرية، فكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقُدْس أشهراً، ويطوف تلك الزِّيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها.

ثم ولاه العادل بن أيوب التَّدريس بالمدرسة التقوية، فكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته، حتى كانت تسمَّى نِظامية الشَّام، وكان إذ فَرَغَ من التدريس يظلُّ بجامع دمشق في البيت الصَّغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة، ومطالعة الكُتُب والفتاوى، ومتى احتاج إلى الطهارة خَرَجَ منه إلى المئذنة الشَّرقية، فقضى حاجته بمكان الطَّهارة المجدَّد بها خارج حائطها القِبْلي، وبها الماءُ الجاري، ثم يرجع إلى مكانه، والنَّاسُ منعكفون عليه، منتفعون به، ولا يُمَلُّ من النَّظر إليه لحُسْنِ سَمْته، واقتصاده في لباسه، ولُطْفه، ونورِ وجهه، وكان لا يخلو لسانه مِنْ ذكر الله تعالى في قيامه وقعوده ومشيه، وكان يحضُرُ تحت النَّسْر بالجامع بعد العَصْر في كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث عليه، وهو المكان الذي كان يجلس فيه عَمُّه الحافظ أبو القاسم إلى أن توفي، ثم ابنه الحافظ أبو محمد إلى أن توفي، ثم ابنه العماد علي إلى أن سافر إلى العراق وخُرَاسان، فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده، وتَمَّ سمعتُ عليه معظم كتاب «دلائل النبوة» للحافظ أبي بكر البهقي[1] وغيره، وكان ـ رحمه الله ـ رقيقَ القلب، سريعَ الدَّمعة[1]، فكنتُ أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يتلى منها، ويردِّدُ مواضعَ المواعظ منها، نحو الشِّعْر المنسوبِ إلى قُسِّ بنِ ساعدة:

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في الأصل، والمثبت من بقية النسخ.

فـي الـذَّاهـبـيـنَ الأوَّلـيـ ـنَ مِـنَ الـقُـرونِ لـنـا بـصـائِـرْ
لـمَّـا رأيـتُ مـوارداً لـلـمـوتِ لـيـس لـهـا مَـصَـادِرْ
ورأيـتُ قـومـي بـعـدَهـا تـمـضـي الأصـاغِـرُ والأكـابِـرْ
أيـقـنـتُ أنـي لا مـحـا لـةَ حـيـثُ صـارَ الـقَـوْمُ صـائِـرْ

فكان ـ رحمه الله ـ يردِّدُها ويبكي.

سألته مسائل من الفقه، وكتبتُ إليه أبياتاً أطلب منه فيها إجازةَ روايةِ ما يجوز له وعنه روايته، وذلك في سنةِ ستِّ عشرة وست مئة، فأجابني أيضاً نظماً بثلاثة أبياتٍ، وجدتُ بَرَكة دعائه لي فيها، وما أعلمه فَعَلَ ذلك مع غيري، وكتبها بخطِّه، وهي:

أَجَزْتُ له قَوْلي وفَّقَ اللهُ قَصْدَهُ[1] وأسْـعَـدَه بـالـعِـلْـم يَـوْمَ مَـعَـادِهِ
روايـةَ مـا أرويـه عـن كـلِّ عـالـمٍ بـصـيـرٍ بـمـا فـيـه طـريـقَ سَـدَادِهِ
فـهـنَّـاه ربـي بـالـعُـلُـومِ وجَـمْـعِـهـا وبـلَّـغـه فـيـهـا سـنـيَّ مُـرَادِهِ

وكان يُسْمِعُ الحديث أيضاً بدار الحديث النُّورية، وبمشهد ابن عروة أوَّل ما فُتِحَ.

وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عَزَلَ القاضي زكي الدِّين الطَّاهر بن محيي الدِّين عن قضاء دمشق أرسل إليه أن يتولَّاه، فأبى، فطلب ١٣٨
حضوره عنده ليلاً، فجاء، فالتقاه، وأقعده إلى جانبه، فجلس محتبياً مستوفزاً، فأُحضر الطَّعام، فلم يَمُدَّ يدَه إليه، ولم يأكل منه شيئاً، فسأله أن يتولَّى القضاء، وكثَّر عليه من القول في ذلك، فقال: حتى استخير الله تعالى. فأخبرني من كان

(١) في هذا الشطر خلل في الوزن، والله أعلم، ويبدو أنه خلل قديم، فقد جاء في نسخة المتحف البريطاني في التأليف الأول لهذا الكتاب: أجزت له وفق الله قصده، ووضعت ضبة فوق «له»، وذكر فيها: وفي البيت الأول زحاف، انظر ص ٢٥ من مقدمة هذا الكتاب.

معه ملازماً له، قال: فلمَّا رجع إلى بيته جدَّد الوضوء، ووقف يصلِّي ويتضرَّعُ ويبكي إلى الفجر، فلمَّا أصبح خَرَجَ إلى الجامع، فصَلَّى الصُّبْح بالكلاسة، ثم مضى إلى مقصورة الصَّحابة، فصلى بها على عادته، ثم دخل بيته الصَّغير الذي في الحائط.

وهو الباب الذي كان يخرج منه خُلَفاء بني أميَّة وأمراؤها إلى الصَّلاة من لدن معاوية بن أبي سفيان إلى زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فلما أخذ الوليد من النَّصارى جهتهم الغربية، وبنى القُبَّة والنَّسْر جَعَلَ المحراب في وسط ذلك، فهو الذي بمقصورة الخطابة اليوم. والباب الأصغر فيها الذي بين المحراب وخزانة مُصْحَف عثمان ـ رضي الله عنه ـ هو الباب الذي كان يخرج منه الوليد، ومَنْ بعده من الخلفاء والأمراء إلى الصَّلاة بالنَّاس، وأما الباب الكبير الخارج عن المقصورة الذي يخرج منه الخطباء، فهو كان لعموم الدَّاخلين إلى دار الخلافة بالخضراء لمن يؤذن لهم في ذلك من جهة الجامع، وقد بيَّنَّا ذلك أيضاً في مختصرنا لتاريخ دمشق.

فلما استقرَّ الشيخ بذلك البيت جَلَسَ يذكر الله تعالى، فلما طلعتِ الشَّمْسُ إذا رُسُلُ السُّلْطان قد جاؤوا في كَشْفِ ما فارقهم الشيخ عليه: الجمال المِصْري، والنَّجْم خليل وغيرهما، فرَدَّهم، وأَصَرَّ على الامتناع، وأشار بتولية الشيخ جمال الدِّين بن الحَرَسْتاني، فَوُلِّي، وكان قد خافَ أن يتأذَّى من جهة السلطان[1]، فجهَّز أهله للسَّفَر، وخرجت المحاير[2] إلى ناحية حلب، فَرَدَّها العادل، وعَزَّ عليه ما جرى، فقيل له: احمُدِ الله تعالى أنَّ في بلادك وفي

(١) في النسخ الخطية ما عدا الأصل: السلطنة.

(٢) المحاير: هي ما يصنع من الخشب على صفة السرير تحمل على ظهر الجمل حين السفر، وتسمى الواحدة «محارة»، وهي شقتان، كل شقة بطرف، وقد بقيت تستعمل حتى زمن متأخر، انظر «قاموس الصناعات الشامية»: للقاسمي: ٤٢٠، وانظر ص ١٧٨ من الجزء الثاني.

زمانك من امتنع من ولاية القضاء، واختار الخروج من بلده على التولية ديناً وزُهْداً.

وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً إذا قام من الليل يؤذِّن للفجر بنفسه، كان في مدرسته أو خارج البلد من بُسْتانٍ وغيره.

وبلغني أنه كان لا يأكل وحدَه، وإذا قُدِّمَ له غداؤه استدعى من أهل المدرسة ممن حَضَرَ مَنْ يأكل معه.

وكان يتورَّع من المرور في رواق الجامع الذي فيه حَلْقة الحنابلة خوفاً من أن يأثموا بالوقيعة فيه؛ وذلك أنَّ الجُهَّال منهم والعوام كانوا يبغضون شيوخ بني عساكر، لأنهم كانوا أعيان الشَّافعية الأشعرية، فكان إذا جاء إلى الجامع من ناحية باب البريد يمرُّ في صحن الجامع أو في الرواق الأوسط إلى المقصورة، وكذا إذا خرج من المقصورة، أو قام من إسماع الحديث تحت النَّسْر ينعطف ويخرج من باب البرادة، ويقول لمن يسأله عن ذلك: يا ولدي، أخاف أن يأثموا بسببي.

وبلغني عنه أنه كان يقول: مَنْ طَلَبَ من غيره مالا يعطيه من نَفْسه فهو داخل في جملة المطفِّفين الذين إذا اكتالوا على النَّاس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. وهذا كلامٌ في غاية الجودة.

وكان السلطان العادل لما أمر ببناء مدرسته المشهورة قد عَزَمَ على أنها تكون للشيخ الفَخْر، فاتَّفق أنَّ العادل توفي قبل كمال عمارتها، وكان ابنه المُعَظَّم حنفيَّ المذهب، وكان في نفسه من الشيخ الفخر لما أنكر عليه إظهار الخمور وتضمينَها[1]، فتركه حتى حَجَّ في ولايته[2]، فأخذ منه المدرسة التَّقوية، وأُخذت منه قبل ذلك النَّاصرية التي بالقدس، ولم يبقَ بيده إلا المدرسة

(١) كان ذلك سنة (٦١٥ هـ)، انظر ص ٣٠٨ من هذا الجزء.

(٢) كان ذلك سنة (٦١٧ هـ)، انظر ص ٣٣٢ من هذا الجزء.

الجاروخية على قِلَّة جاريها، ونَزْر ما فيها، ثم لما تكاملتِ المدرسةُ العادلية[1]، فوَّضها إلى قاضيه الجمال المِصْري وتركه، فسبحان مَنْ جعل فيه أفضل أسوة وعمدة، لمن ظُلِمَ من المشايخ والفضلاء بعده.

قال أبو المظفر سِبْط ابن الجوزي: ولد فخر الدين في سنة خمسين وخمس
١٣٩ مئة، وكان زاهداً، عابداً، ورعاً، منقطعاً إلى العِلْم والعبادة، شيخاً[2] حَسَنَ الأخلاق، قليلَ الرَّغْبة في الدُّنيا، وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر رجب، ودفن على الشَّرَف القِبْلي عند مقابر الصُّوفية، وكانت له جِنازة عظيمة، وقبره ظاهرٌ يزار، وصَلَّى عليه الملك العزيز بنُ العادل، ولم يتخلَّف عن جنازته إلا القليل، سمع عَمَّيه أبا القاسم الحافظ، والصائن هبة الله، والقُطب النَّيسابوري، وغيرهم.

قلتُ: أخبرني مَنْ حَضَرَ وفاته، قال: صَلَّى الظُّهْر يوم توفي، ثم جعل يسأل عن العَصْر، فقيل له: لم يقرب وقتُها. فدعا بماءٍ، فتوضأ، ثم تشهد وهو جالس، وقال: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ ﷺ نبياً، لقنني الله حُجَّتي، وأقال عَثْرتي، ورَحِم غُرْبتي، وآنس وَحْدَتي، ثم قال: وعليكم السَّلام. فعلمنا أنه حضرته الملائكة حينئذٍ، وسلَّموا عليه، ثم انقلبَ على قفاه عقيبَ قوله: وعليكم السلام ميّتاً، رحمه الله تعالى.

وغَسَّله فخرُ الدِّين بنُ المالكي، ومعه ابنُ أخيه عبد الوهَّاب بن زين الأمناء وغيره، وكان قد اجتهدَ في مرضه في تملُّك المكان الذي دُفن فيه من مستحقيه، وحُفِرَ له القبر وهو حيٌّ، وكان مرضه بالإسهال، وكانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب، واحتشد النَّاس من الغد لجنازته، وخَرَجوا به من المدرسة الجاروخية على باب البريد إلى الجامع، وإذا النَّاسُ في الجامع كهيئتهم يوم

(١) كان ذلك سنة (٦١٩ هـ)، انظر ص ٣٥١ من هذا الجزء.

(٢) كذا في النسخ الخطية، وفي «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٢٠ هـ): سخياً.

الجمعة، فوضعت الجِنازة ملاصقةً للحائط القِبْلي قُرْب اللازوردة[١]، وتقدَّم للصَّلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هِبَة الله المعروف بزين الأمناء، ثم خرجوا بالجِنازة إلى ناحية الميدان الأخضر بالشَّرف القِبْلي، وقد امتلأتِ الطُّرُق بالنَّاس، وَمَنِ الذي قدر على الوصول إلى حمل سريره! ولولا الأمير عِزُّ الدين أيبك صاحب صَرْخد أستاذ دار المُعَظَّم مع أصحابه وأجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريره بالدَّبابيس والعصي يمنعون النَّاسَ من قُرْبه لتعذَّرَ وصولُه إلى حُفْرته في يومه، وقَبْرُه على يسار المار مغرِّباً في طريق الشرف القبلي مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول إلى قبر شيخه قُطْب الدِّين مسعود النَّيسابوري بقليل، وجُعِلَ على قبره بلاطة فيه اسمهُ وتاريخُ وفاته، يقرؤها مَنْ كان خارج الشُّبَّاك، رحمه الله تعالى.

وأما شيخُ الحنابلة فهو أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدَامة، المَقْدِسي[٢]، الملقَّب بموفَّق الدِّين، أخو الشيخ أبي عمر[٣].

كان إماماً من أئمة المسلمين، وعَلَماً من أعلام الدِّين في العلم والعمل، صنَّف كتباً كثيرةً حِساناً في الفقه وغيره، ولكنْ كلامُهُ فيما يتعلق بالعقائد في

---

(١) كانت عن يمين باب الخطابة، انظر ص ٢٠٢ من الجزء الثاني.

(٢) له ترجمة في معجم البلدان: ٢/ ١٦٠، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٠٧، مشيخة ابن البخاري: ٣٢٧ ـ ٣٤٤، تاريخ الإسلام (ت ٦٦٩، وفيات سنة ٦٢٠هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٦٥ ـ ١٧٣، العبر للذهبي: ٥/ ٧٩ ـ ٨٠، المختصر المحتاج إليه: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥، فوات الوفيات: ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩، الوافي بالوفيات: ١٧/ ٣٧ ـ ٣٩، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٠ هـ)، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ١٣٣ ـ ١٤٩، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥٦، المقصد الأرشد: ٢/ ١٥، المنهج الأحمد: ٤/ ١٤٨ ـ ١٦٥، القلائد الجوهرية: ٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤٤، شذرات الذهب: ٥/ ٨٨ ـ ٩٢.

وللدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد كتاب «ابن قدامة وآثاره الأصولية»، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م.

(٣) وقد حضر معركة حطين مع صلاح الدين، انظر «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

مسائل الصِّفات والكلام هو على الطَّريقة المشهورة عن أهل مذهبه، فسبحان مَنْ لم يوضِّحِ الأمرَ له فيها، على جلالته في العِلْم، ومعرفته بمعاني الأخبار والآثار.

وسمعتُ عليه «مسند الإمام الشَّافعي» رحمه الله، وفاتني منه نحو ورقتين عند باب استقبال القِبْلة بسماعه من أبي زُرْعة، وسمعتُ عليه كتاب «النصيحة» لابنِ شاهين، وغير ذلك.

١٤٠ ومولده في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمس مئة بأرض نابُلُس، ووَهِمَ ابنُ الدُّبيثي في ذِكْر مولده[1]، وقال: سمع ببغداد سَعْد الله بن نَصْر بن الدَّجاجي، وأبا الفضل أحمد بن صالح بن شافع، وأبا الحسن علي بن عبد الله بن تاج القُرَّاء، والكاتبة شُهْدَة، وغيرهم، وحصَّل طرفاً صالحاً من الفِقْه والأصول، وعاد إلى دمشق، وتوفَّر على الاشتغال بالفِقْه وتدريسه، وحدَّث بشيء من مسموعاته.

قال أبو المُظَفَّر: ولد في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، وسافَرَ إلى بغداد مرَّتين، إحداهما مع الحافظ عبد الغني سنة إحدى وستين، والأخرى: سنة سبعٍ وستين، وحَجَّ سنة ثلاثٍ وسبعين، وسمع خلقاً كثيراً، وتفقَّه على مذهب الإمام أحمد، وعاد إلى دمشق، وكان إماماً في فنونٍ، ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر والعماد أزهدَ ولا أورع منه، وكان كثيرَ الحَيَاء، عَزُوفاً عن الدُّنيا وأهلها، هيِّناً ليناً متواضعاً، محباً للمساكين، حَسَنَ الأخلاق، جَوَاداً سخيّاً، مَنْ رآه كأنَّما رأى بعضَ الصَّحابة، وكأنَّ النورَ يخرجُ من وَجْهه، كثيرَ العبادة، يقرأ كل يوم وليلة سُبْعاً من القُرْآن، ولا يصلِّي ركعتي

(١) الوهم الذي يشير إليه أبو شامة هو قول ابن الدبيثي في ترجمته: الدمشقي المولد، وانظر «المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥.

السُّنَّة في الغالب إلا في بيته اتِّباعاً للسُّنَّة، وكان يحضرُ مجالسي دائماً في جامع دمشق وقاسيون[١].

وحكى أبو عبد الله بن فَضْل الأعناكي، قال: قلتُ في نفسي: لو كان لي قُدْرة لبنيت للموفَّق مدرسةً، وأعطيته كل يوم ألف دِرْهم، قال: ثم جئتُ بعد أيام، فسلَّمْتُ عليه، فنظر إليَّ وتبسَّم، وقال: إذا نوى الشخص نيةً كُتِبَ له أَجْرُها[٢].

وحكى أبو الحسن عليُّ بن حَمْدان الجرائحي، قال: كنتُ أُبغض الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد، فمرضتُ مرضاً شنَّج أعضائي، وأقمتُ سبعة عشر يوماً لا أتحرَّك، وتمنيتُ الموت، فلمَّا كان وقت العشاء جاءني الموفق، وقرأ عليَّ آياتٍ ورقاني، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] ومَسَحَ على ظهري، فأحسستُ بالعافية، وقام. فقلتُ يا جارية: افتحي له الباب. فقال: أنا أروح مِنْ حيثُ جئت. وغابَ عن عيني، فَقُمْتُ من ساعتي إلى بيت الوضوء، فلما أصبحتُ دخلتُ الجامع، فصليتُ الفَجْر خَلْفَ الموفَّق، وصافحته، فَعَصَر يدي، وقال: احذر أن تقول شيئاً. فقلتُ: أقول، وأقول[٤].

وقال قوَّام جامعِ دمشق: كان ليلةً يبيتُ بالجامع تُفْتَحُ له الأبوابُ فيخرج، ويعود فَتُغْلَق على حالها[٥].

قلتُ: كان الموفَّق بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٢) المصدر السالف.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٤) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

(٥) المصدر السالف.

المُظَفَّري، ويخطُبُ يومَ الجمعة إذا حَضَرَ، فإنْ لم يحضُر، فابنُهُ عبدُ الله بنُ أبي عمر هو الخطيبُ والإمام، وأما في محرابِ الحنابلة بجامع دمشق فيصلِّي فيه الموفَّق إذا كان في البلد، وإذا مضى إلى الجبل صَلَّى العماد أخو عبد الغني، وبعد موتِ العماد كان يصلِّي فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني ما لم يحضُرِ الموفَّق، وكان بين العِشاءين يتنفَّل حذاءَ المحراب، وجاءه مرَّةً الملكُ العزيز بن العادل يزوره، فصادفه يصلي، فجلس بالقُرْب منه إلى أن فَرَغَ من صلاته، ثم اجتمع به، ولم يتجوَّز في صلاته، وكان إذا فَرَغَ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرب الدَّوْلعي بالرَّصيف، ويمضي معه من فقراء الحَلْقة من قَدَّره الله تعالى، فيقدِّمُ لهم ما تيسَّر يأكلونه معه.

ومن أظرف ما حُكي لي عنه أنه كان يجعل في عِمامته ورقةً مصرورة فيها رمل؛ يُرَمِّلُ به ما يكتُبُه للنَّاس من الفتاوى والإجازات وغيرها، فاتُّفقَ ليلاً خُطِفَتْ عِمامَتُهُ، فقال لخاطفها: يا أخي، خُذْ من العِمامة الورقةَ المصرورة بما فيها، وَرُدَّ العِمامة أغطي بها رأسي، وأنت في أوسع الحِلِّ مما في الورقة. فَظَنَّ الخاطِفُ أنَّها فِضَّة، ورآها ثقيلةً، فأخذَها وَرَدَّ العمامة، وكانت صغيرةً عتيقة، فرأى أَخْذَ الورقة خيراً منها بدرجات، فخلَّصَ الشيخُ عمامته بهذا الوجه اللطيف.

١٤١ وكانت وفاتُهُ يوم السبت يوم عيد الفطر أول شوال، ودفن من الغد بجبل قاسيون خلف الجامع المُظَفَّري في مقبرتهم المشهورة، وكانت له أيضاً جِنازةٌ عظيمة ذات جَمْعٍ وافر؛ امتدَّ النَّاسُ في طُرُقِ الجبل، فملؤوها.

قال أبو المُظَفَّر: حكى إسماعيل بنُ حماد الكاتب البغدادي، قال: رأيتُ ليلة عيد الفطر كأنَّ مُصْحَف عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد رُفِعَ من جامع دمشق إلى السماء، فلحقني غَمٌّ شديد، فتوفي الموفَّق يوم العيد[1].

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠ هـ).

قال: ورأى أحمد بن سَعْد؛ أخو محمد بن سَعْد الكاتب المقدسي، قال: وكان أحمد من الصَّالحين، قال: رأيتُ ليلة العيد ملائكة ينزلون من السماء جُمْلَةً، وقائلٌ يقول: انزلوا بالنوبة. فقلت: ما هذا؟ قال: يتلقَّون روح الموفق الطَّيِّبة في الجسد الطَّيِّب[١].

قال: وقال عبدُ الرحمن بن محمد العَلَوي: رأيتُ كأنَّ النبيَّ ﷺ ماتَ وقُبِرَ بقاسيون يوم عيد الفطر، قال: وكُنَّا بجبل بني هلال، فرأينا على قاسيون ليلة العيد ضوءاً عظيماً، فظننَّا أن دمشق قد احترقت، وخَرَجَ أهلُ القرية ينظرون إليه، فوصل الخبر بوفاة الموفَّق يوم العيد، ودفن بقاسيون[٢].

وقال: وكانت وفاته بدمشق، وحُمِلَ إلى قاسيون، وكان له جَمْعٌ عظيم، سمع الشيخ عبد القادر، وأبا الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سَلْمان، وأبا زُرْعة طاهر بن محمد بن طاهر المَقْدِسي، وأبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النَّقُّور، وأبا محمد ابن الخَشَّاب، وجَدِّي ـ يعني أبا الفَرَج بنَ الجوزي ـ وغيرهم ببغداد. وسمع بمكة أبا محمد المبارك بن الطَّبَّاخ، وبالمَوْصِل أبا الفَضْل عبد الله بن أحمد الطُّوسي الخطيب. وبدمشق والده أحمد، وأبا المكارم عبد الواحد بن المسلم بن هلال، وأبا المَعَالي عبدَ الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن صابر السُّلَمي، وخَلْقاً كثيراً[٣].

وأنشدني لنفسه، رحمه الله:

أبعدَ بياضِ الشَّعْرِ أَعْمُرُ مَسْكَناً ... سوى القَبْرِ إني إنْ فَعَلْتُ لأَحْمَقُ

يُخَبِّرُني شَيْبي بأنِّيَ مَيِّتٌ ... وَشِيْكاً وينعاني إليَّ فَيَصْدُقُ

تخرَّقَ عُمْري كلَّ يومٍ وليلةٍ ... فهل مستطيعٌ رَفْوَ ما يتخرَّقُ

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠هـ).

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف، وقد اختصر فيه أسماء بعض شيوخه.

كأنّي بجسمي فوق نَعْشي مُمَدَّداً فمِنْ ساكتٍ أو مُعْوِلٍ يتحرَّقُ
إذا سألوا عنّي أجابوا وأعْوَلُوا وأدْمُعُهُمْ تَنْهَلُّ هذا المُوَفَّقُ
وغُيِّبْتُ في صَدْعٍ من الأرضِ ضَيِّقٍ وأُوْدِعْتُ لَحْداً فَوْقَهُ الصَّخْرُ مُطْبِقُ
ويحثو عليَّ التُّرْبَ أَوْثَقُ صاحِبٍ ويُسْلِمُني للقَبْرِ مَنْ هو مُشْفِقُ
فيا رَبِّ كنْ لي مُؤنساً يومَ وَحْشَتي فإنّي بما أنْزَلْتَهُ لمصدِّقُ
وما ضَرَّني أني إلى اللهِ صائِرٌ ومَنْ هُوَ مِنْ أهلي أَبَرُّ وأَوْثَقُ[1]

قال: وكان له أولاد: أبو الفَضْل محمد، وأبو العِزّ يحيى، وأبو المجد عيسى، ماتوا كلُّهم في حياته، ولم أدرك منهم غير عيسى، وكان من الصَّالحين، وأُمُّ الجميع مريم بنت أبي بكر بن عبد الله بن سَعْد المقدسي، وكان له منها بنات: صفية، وفاطمة، ولم يُعْقِبْ من ولد الموفَّق سوى عيسى، خلَّف ولدين صالحين، وماتا، وانقطع عَقِبه[2].

قلت: ونقلت من خطّه، رحمة الله عليه:

لا تَجْلِسَنَّ بِبابِ مَنْ يأبى عليكَ دخولَ دارِهْ
١٤٢ وتقولُ حاجاتي إليـ ـه يَعُوقُها إنْ لم أُدارِهْ
واتركْهُ واقْصِدْ رَبَّها تُقْضى وَرَبُّ الدَّارِ كارِهْ[3]

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٠هـ)، وفيه: أبر وأشفق.

(٢) المصدر السالف.

(٣) الأبيات للشاعر مَجْبَر بن محمد الصِّقِلّي، طرأ على مصر وأقام فيها، وكان له ديوان كبير فيه بضعة عشر ألف بيت، توفي قبل الأربعين والخمس مئة، وقد أوقفني على ترجمته صديقي المحقق الثبت الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، حفظه الله ورعاه، وانظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ٢/ ٨٢ ـ ٨٩ والأبيات فيه، والوافي بالوفيات: ٢٥/ ١٣٨ ـ ١٤١، وتوضيح المشتبه: ٨/ ٥١.